جرائم الاستعمار الفرنسي تجاه الآثار الإسلامية بتلمسان

The colonial crimes of France against Islamic monuments in Tlemcen

حورية بن صالح[1]♦، محمد عطار[2]

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، horiya.bensalah@univ-tlemcen.dz[1].

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، mohammedarcheo13@gmail.com[2].

تاريخ الإرسال: 2026/02/28 ؛ تاريخ القبول: 2026/03/29 ؛ تاريخ النشر: 2026/06/15

الملخص:

يحتفظ التراب الجزائري بأطلال عواصم الدول الإسلامية المتعاقبة على المغرب الأوسط (الجزائر) كقلعة بني حماد، وحاضرة أشير البربرية، وسدراته عاصمة الرسميين الثانية، وتلمسان عاصمة الزيانيين وغيرها كثير، ولكن هذه المعالم الإسلامية الهامة لم تلق العناية من طرف الإدارة الاستعمارية في الجزائر على عكس المعالم الرومانية، مما جعلها تكون عرضة للاندثار.

وقد عمل العلماء الفرنسيون منذ احتلالهم الجزائر سنة 1830 على الاهتمام بالآثار المحلية الجزائرية، وقد تركز البحث في الأعوام الأولى على الآثار الرومانية والبيزنطية، وذلك تبريرا للتواجد الاستعماري على أنه امتداد للتواجد الروماني بشمال إفريقيا قبل قدوم العرب والمسلمين، ثم تطور الاهتمام بالآثار ليشمل الآثار الإسلامية، وقد جذب هذا الأمر العديد من العلماء الغربيين وعلى رأسهم الفرنسيين، خاصة المعالم والآثار التي تم هدمها وتخريبها بفعل الاستعمار، إلا أن الاهتمام بالتراث الإسلامي بقي حبيس المرتبة الثانية دائما.

سنتطرق في هذا المقال ومن خلال الرجوع للأرشيف إلى وضعية الآثار الإسلامية أثناء الفترة الاستعمارية من خلال دراسة بعض النماذج المتواجدة بمدينة تلمسان، التي قام الفرنسيون بالبحث فيها، والغاية من ذلك.

الكلمات المفتاحية:

الآثار الإسلامية؛ الاستعمار الفرنسي؛ المساجد؛ الجرائم؛ التخريب.

♦ حورية بن صالح

Abstract:

Algerian soil retains the ruins of the capitals of successive Islamic States over central Central Maghreb (Algeria), such as the Qal 'at Bani Hammad, the city of Ashir al-Berberiya, its second official capital, touching the capital of Zayanis and many others, but these important Islamic monuments have not received the attention of Algeria's colonial administration, unlike the Roman monuments.

Since their occupation of Algeria in 1830, French scholars have worked to address Algeria's local monuments. in the early years, the research focused on Roman and Byzantine monuments, This justifies the colonial presence as an extension of the Roman presence in North Africa before the arrival of Arabs and Muslims and then interest in monuments evolved to include Islamic monuments, and this attracted many Western scholars, mainly French heritage, especially the monuments and monuments destroyed and vandalized by colonialism, but attention to Islamic heritage has always been trapped second.

We will address in this article and through reference to the archives the status of Islamic antiquities during the colonial period by studying some of the models in which the French researched, and the purpose thereof.

Keywords:

Islamic monuments; French colonization; mosques; Crimes; Destruction.

مقدمة:

لم يول الاستعمار الفرنسي منذ دخوله إلى الجزائر التراث الإسلامي المادي اهتماما كغيره من أنواع التراث التي تزخر بها المنطقة، حيث لقي التراث الروماني والبيزنطي الاهتمام منذ السنوات الأولى، ذلك أن السلطات الاستعمارية كانت دائما تبرر وجودها بالجزائر على أنه امتداد للتواجد الروماني وبالتالي البحث عن شرعية للاحتلال، إلا أنه مع الوقت اهتم الباحثون الفرنسيون بدراسة هذا التراث الإسلامي خدمة لمصالحهم.

ومن هنا يمكن طرح الإشكالية التالية: كيف تعامل المستعمر الفرنسي مع الآثار الإسلامية بمدينة تلمسان ؟ وما خلفياته وراء ذلك ؟

سنتطرق في هذا المقال ومن خلال الرجوع للأرشيف إلى وضعية الآثار الإسلامية أثناء الفترة الاستعمارية من خلال دراسة بعض النماذج التي قام الفرنسيون بالبحث فيها، والغاية من ذلك، فاتبعنا المنهج التاريخي التحليلي، فقمنا بالبحث في بعض المعالم التاريخية بمدينة تلمسان كنموذجا للدراسة.

1- الاهتمام بالآثار الرومانية على حساب الآثار الإسلامية:

يحتفظ التراب الجزائري بأطلال عواصم الدول الإسلامية المتعاقبة على المغرب الأوسط (الجزائر) كقلعة بني حماد، وحاضرة أشير البربرية، وسدراته عاصمة الرسميين

الثانية، وتلمسان عاصمة الزيانيين وغيرها كثير، ولكن هذه المعالم الإسلامية الهامة لم تلق العناية من طرف الإدارة الاستعمارية في الجزائر على عكس المعالم الرومانية، مما جعلها تكون عرضة للاندثار، ويكفينا ما تضمنته الوثائق الأرشيفية للبرهنة على ذلك الإهمال الإرادي، خصوصا عند تصفح الأعمال الأثرية المنفذة منذ سنة 1925 إلى غاية سنة 1939 وهي الفترة التي امتدت فيها نشاطات الاحتفالات بالذكرى المئوية للاحتلال الفرنسي في الجزائر، فنجد أن التنقيبات الأثرية وأعمال الصيانة والترميم تكررت في تلك السنوات ونفذت خصوصا في مدوار، جميلة، تيمقاد، لمباس، الخروب، قالمة، بون، تيبازة، شرشال.

ويكفينا مثال واحد للبرهنة على هذا الإهمال الإداري، نأخذه من الأطلس الأثري ذي الشهرة الفائقة، فورقة تلمسان (31) لم يرد في رقم (56) الخاص بمدينة تلمسان نفسها شيء حول هذه العاصمة الزيانية اللامعة، بل أن "بوماريا" (pomaria) الرومانية السابقة لتلمسان والتي لم يبق من أثارها سوى القليل النادر، قد احتلت (67) سطرا استقصى فيها "غزيل" (gsell) أخبار هذه المستعمرة متتبعا كل ما يشتم فيه رائحة هذه المؤسسة وما يذكر بمجتمعها المسيحي أنذاك... ولم يخصص لمدينة المنصورة الجاثمة على أبواب تلمسان الغربية سوى ثلاثة سطور ذكر فيها أداة حجرية تعود إلى ما قبل التاريخ، إن هذا التغافل ينطبق على جميع المعالم الإسلامية ، وإن شئت التأكد فارجع إلى الورقة (25) الخاصة بالمسيلة لتقف على حظ مدينة الزاب وقلعة بني حماد، أو عد إلى ورقة (14) الخاصة بتيارت (تيهرت) لتتيقن من أن عاصمة الرستميين الأولى لا وجود لذكرها إطلاقا...(شنيتي، 2003: 27)

2- تخريب الآثار الإسلامية في مدينة تلمسان:

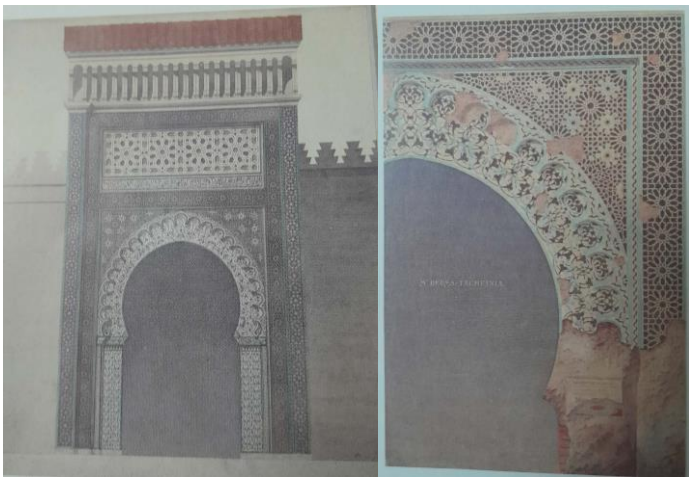
يروي جورج مارسيه أن الكولون كانوا يحسون بالغيرة من المدن والآثار الإسلامية، فقد كانوا يعملون على تخليص أو تطهير المدينة من أي شيء يجلب الزوار إليها مثل المعالم الإسلامية. وكان مارسيه يتحدث عن موقف الكولون من مدينة تلمسان. إن المستعمر الفرنسي لا يريد لعاصمة بني زيان أن تنافس أي دائرة من دوائر فرنسا، وقد وعدهم مارسيه نفسه بأن تلمسان الأثرية ستنقرض بالتدرج، كما انقرضت في نظره مدينة الجزائر القديمة، وستسقط (تلمسان) تحت ضربات معاول المنتصرين (الفرنسيين)، ولكنها ستظل مدة طويلة محجة لزوار الفن المعماري(Marçais, les monuments, 1903: 111).

تعرضت المواقع الإسلامية منذ بداية الاستعمار للتهميش والتدمير، فقد كانت القوات الاستعمارية الفرنسية عند احتلال أي مدينة جزائرية في السنوات الأولى للاحتلال، تقوم بالاستقرار بقلب المدينة المحتلة بما في ذلك المباني والقصور والمعالم

الدينية المختلفة مثل (المساجد، الزوايا) والمدارس ومصادرة الأوقاف وكانت الغاية طمس الهوية الإسلامية للشعب الجزائري، ومن أمثلة التخريب والطمس استعمال المساجد والمدارس والقصور لوظائف مغايرة تماما، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر:

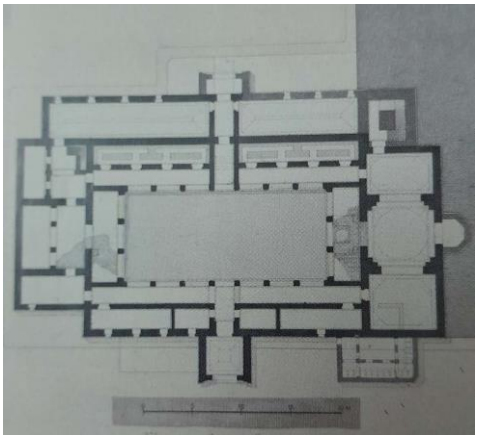
1.2- المدرسة التاشفينية:

تعتبر أجمل معلم تم حرماننا من رؤيته لما تحمله من رقي معماري وفني شد انتباه المعمرين ومؤرخي الفن (أنظر لوحة رقم 01)، حيث شيدت هذه المدرسة بأمر من السلطان أبي تاشفين ابن أبي حمو الأول خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر (14م) ، كان موقعها مقابل الجامع الكبير المرابطي بوسط مدينة تلمسان. فقد أقدمت مصالح الهندسة العسكرية على تحويل المدرسة التاشفينية إلى مخزن لإيداع مؤونة الجيش، الاحتلال، استعملت لتخزين مؤونة الجيش بداية من سنة 1845م، ثم تحويلها في وقت لاحق إلى فضاء للعروض المسرحية والترفيه لفائدة عناصر الجيش.



صورة 01: مدخل المدرسة التاشفينية (TERRASSE et autres, 2011 , p 142)

شكلها العام عبارة عن مستطيل تتوزع العناصر المعمارية به حول فناء مستطيل ببوائك، تحتوي على مصلى وحوض مائي، بالإضافة إلى مجموعة من الغرف وهياكل أخرى، ويزين واجهتها باب فخم (أنظر لوحة رقم 02) مزين بالزليج الملون الذي يحتوي على مزيج من الزخارف الهندسية والنباتية التي تبرز كفاءات ومهارات صناع تلمسان (أنظر لوحة رقم 02)، وبالزاوية الجنوبية الشرقية توجد مئذنة المدرسة التي لا نملك عنها أي معلومة (Archives de la defense/Archives du Génie/1VH1809-dossier2,Feuille 12).



المخطط 01: مخطط المدرسة التاشفينية (TERRASSE et autres, 2011, p140)

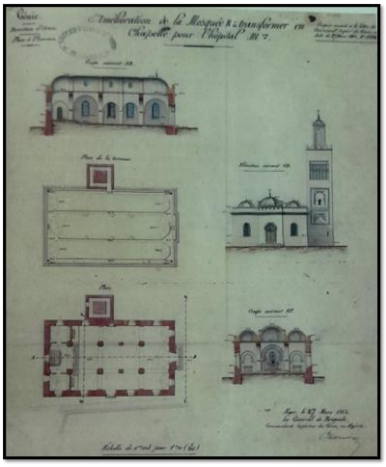


الصورة 02: الزخارف الفنية بالمدرسة التاشفينية (TERRASSE et autres، 2011)

وقد تم هدمها نهائيا وهي في حالة جيدة من الحفظ سنة 1873م لتوسعة الساحة المركزية حسب زعمهم ، وكان قرار هدمها من طرف الإدارة الفرنسية بمثابة صدمة حتى للمعمرين أنفسهم والشغوفين بالتراث أمثال "ستيفان غزال" (Stéphane Gsell) و"ديتوا" (Duthoit)، الذين احتجوا عن هذا القرار ولكن بدون جدوى.

2.2- جامع المشور:

بناه أبو حمو موسى الأول في بداية القرن الرابع عشر (14م)، وهو مسجد مصلى خاص بالسلاطين، ذو مساحة صغيرة، تتميز مئذنته بكتابة من زليج ذو بريق معدني.
عرف المسجد في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر تعديلات، بتوسيع باب المشور المفضي إلى المدينة بالهيئة التي هو عليها اليوم، ودعم السور الخارجي الذي كان مبنيا بالطابية في الأصل بسور حجري آخر من الخارج (TERRASSE, 2011, page 148)، وتم تحويل المسجد إلى كنيسة سنة 1963 أنظر لوحة رقم 03)، حيث أزيل المحراب وبقي تنظيمه الداخلي (Service Historique de la défense، 1H758، pièce 60)



المخطط 02: تحويل مسجد المشور إلى كنيسة (TERRASSE et autres، 2011، p 99)

3.2- مسجد سيدي أبو الحسن:

يقع مسجد سيدي أبي الحسن غرب الجامع الكبير، شيد سنة 1296م/696هـ، بأمر من السلطان أبي سعيد عثمان، مساحته تقدر بـ 120م^2 ، يعود إنجازه إلى الفترة التي وصل فيها الفن الزياني إلى أوجه (أنظر لوحة رقم 04)، يحتوي على نقوش ملونة على الخشب منجزة بدقة حيث يمييزها تناغم تام مع زخارف الجدران والعقود، وأبرز ما يميز هذا المعلم

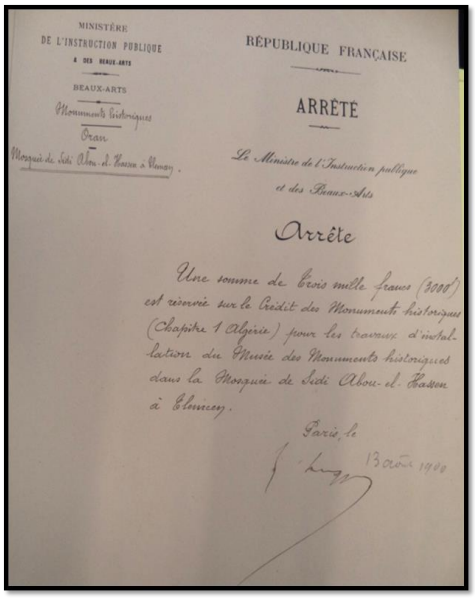
التاريخي، هو تقنية نقش اللوحة التذكارية بكتابة غائرة بالخط الأندلسي، وروعة الزخارف الجصية التي تميز واجهة محرابه.



الصورة 03: مسجد أبي الحسن التنسي

عرف المسجد في غضون فترة الاحتلال الفرنسي عدة وظائف، حيث حول إلى: مستودع للخمور، ثم مخزن للعلف، ثم مقر للمدرسة العربية- الفرنسية، ثم متحف محلي وهي الوظيفة التي بقي عليها إلى اليوم (رزقي الشرقي، 2013: 52).

وقد شهد المعلم التاريخي تعديلات معمارية عميقة، أثناء وقبل تحويله إلى متحف بداية من عام 1901م، وذلك بقرار وزير الأشغال العمومية والفنون الجميلة، المؤرخ في 13 أوت 1900 بباريس (أنظر لوحة رقم 05)، حيث خصص مبلغ 3000 فرنك من ميزانية المعالم التاريخية للتكفل بأشغال التحويل(Médiathèque de l'architecture et du patrimoine, Fonds 81/99.01, Carton n°8, Dossier 164). وذلك بعد تعرضه لحريق مهول (George Marcais, Musées, 1906: 07)، فقد ألغي صحنه الذي كان يقع بالجهة الغربية من المعلم بالكامل، وتعويضه بقاعة طويلة، تتكون اليوم من طابقين للعرض المتحفي، كما فتحت ببيت صلاته أربع نوافذ كبيرة نسبيا، متماثلة الشكل، منها نافذتين في الجدار الشمالي، والنافذتين المتبقيتين بالجدار الشرقي، يتوسطهما باب تذكاري صغير، إلى جانب زخرفة واجهة المسجد من الخارج بأشرطة خزفية، وتجديد سقفه من الداخل والخارج بالكامل، ساعة تحويله لمدرسة، بالإضافة إلى تزويده بسياج خارجي من الناحيتين الشمالية والشرقية(رزقي الشرقي، 2013: 52-53)



MINISTÈRE
DE L'INSTRUCTION PUBLIQUE
& DES BEAUX-ARTS

BEAUX-ARTS

Monuments Historiques

Oran

Mosquée de Sidi Abou-el-Hassen à Mansey.

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE

ARRÊTÉ

Le Ministre de l'Instruction publique
et des Beaux-Arts

Arrête

Une somme de trois mille francs (3000) est réservée sur le Crédit des Monuments historiques (Chapitre 1 Algérie) pour les travaux d'installation du Musée des Monuments historiques dans la Mosquée de Sidi Abou-el-Hassen à Tlemcen.

Paris, le 13 août 1900

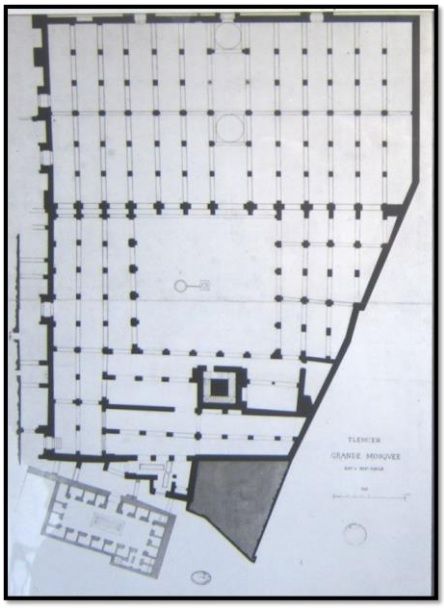
Le Ministre

الصورة 04: : قرار تحويل مسجد سيدي أبي الحسن إلى متحف (Médiathéque de l'architecture et du patrimoine)

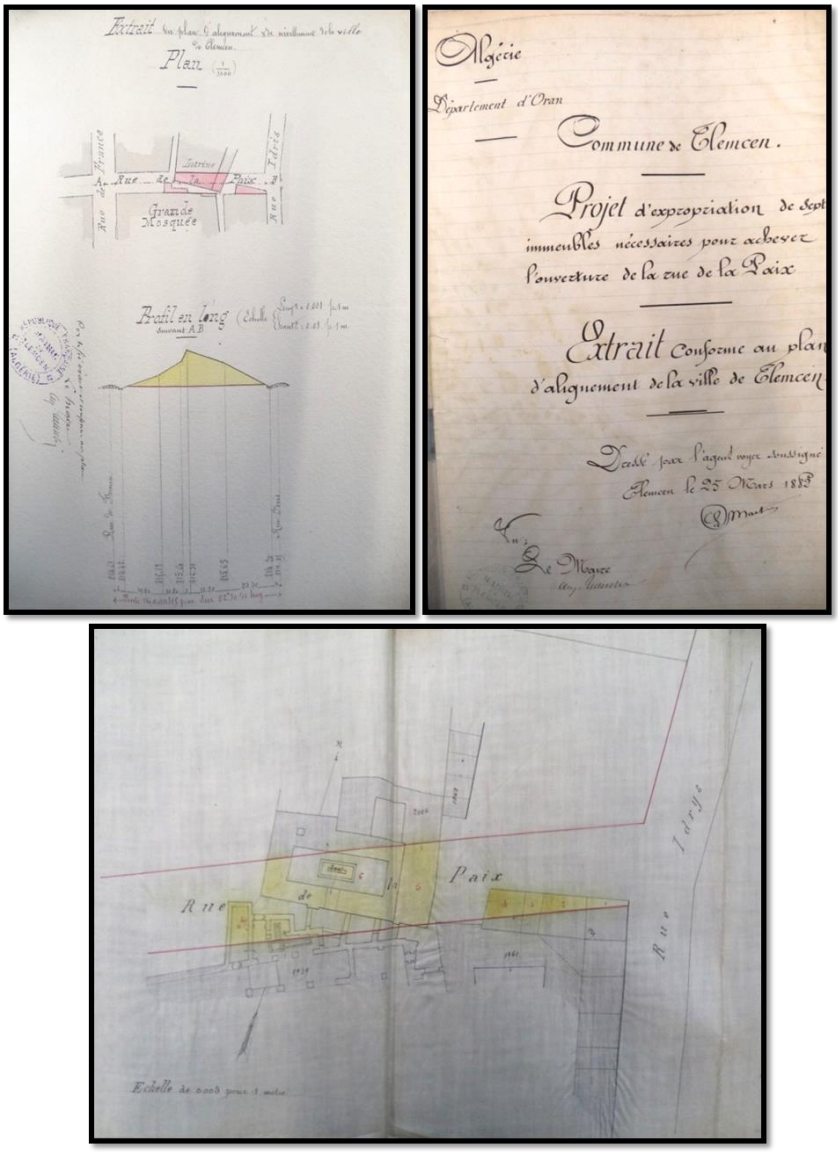
4.2. الجامع الكبير:

أمر بتشييده يوسف بن تاشفين المرابطي إلا أن متابعة الأشغال وبنائها يعود لابنه علي (النصف الأول من القرن الثاني عشر)، يعد المسجد انجازا مميزا للفن المرابطي، وتعد قبته المخرمة آية فنية في الدقة والجمال.

لم يسلم الجامع الكبير بمدينة تلمسان هو الآخر من أعمال التخريب التي طالت المعالم الإسلامية حيث، تم هدم الميضأة بالكامل عمدا والتي كانت موجودة موضع العمارة الملاصقة للبنك اليوم، وذلك خلال وضع مشروع نزع ملكية 7 مباني في الشارع الشرقي للجامع، وذلك من أجل إنجاز أشغال فتح طريق شارع السلام (rue de paix) (أنظر لوحة رقم 06)، وذلك بموجب القرار المؤرخ في 25 مارس 1882 (Médiathèque de l'architecture et du patrimoine, Fonds 81/99.01, Carton n°8, Dossier 164).



المخطط 03: مخطط المسجد الكبير(TERRASSE et autres, 2011, p84)



الصورة 05: قرار هدم ميضأة الجامع الكبير (Médiathéque de l'architecture et du patrimoine)

الخاتمة:

تطور التعامل مع الآثار الإسلامية أثناء فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، فبعد أن كان هدفا للتخريب المباشر من طرف الجيش الفرنسي والمعمرين، لقيت بعض الإسلامية الاهتمام من طرف الباحثين الفرنسيين، ولكن ذلك لم يكن حبا في هذا التراث، إنما رغبة في تفادي غضب الأهالي لما تمثله لهم معالمهم الدينية، وبقي التراث الأثري الإسلامي حبيس المرتبة الثانية بعد الآثار الرومانية التي لقيت دراسات معمقة وأبحاث أثرية كثيفة حولها. وهي السياسة التي اعتمدها فرنسا من أجل طمس الهوية الإسلامية الجزائرية.

ارتكزت عملية هدم مقومات الأمة الجزائرية على ثلاث استراتيجيات أساسية: هي اللغة والأرض والدين، حيث سعت الإدارة الفرنسية إلى هدم كل ما له صلة بالدين الإسلامي والتعليم، وهذا ما يفسر لنا الهدف من وراء هدم المدرسة التاشفينية التي تخرج منها علماء وكانت النموذج المثالي للفن الإسلامي، بالإضافة إلى تحويل مسجد المشور إلى كنيسة، وتحويل مسجد سيدي أبي الحسن إلى متحف.

ومن هنا بقي لنا سوى المحافظة على ما تبقى من تراث إسلامي، عن طريق صيانة وترميم تلك الآثار الإسلامية، ومن ناحية أخرى دراستها والبحث فيها من طرف القراء والباحثين لإيصالها للأجيال القادمة.

قائمة المراجع:

الشرقي الرزقي، (2013)، المعالم التاريخية والمواقع الأثرية بمدينة تلمسان في عدسات مصوري القرن (19)، تلمسان: دار ابن خلدون للنشر.

شنيتي محمد البشير، (2003)، أضواء على تاريخ الجزائر القديم (بحوث ودراسات)، الجزائر: دار الحكمة.

Archives de la defense/Archives du Génie/1VH1809-dossier2, Feuille 12.

MARÇAIS (W & G), (1903), Les monuments arabes de Tlemcen, Paris : Editeur Albert FONTEMOING.

MARÇAIS , (W), (1906), Musée de Tlemcen ; Musées et collections archéologique de l'Algérie et de la Tunisie, Paris : Editeur LEROUX Ernest.

Médiathèque de l'architecture et du patrimoine, Fonds 81/99.01, Carton n°8, Dossier 164.

Service Historique de la défense ،1H758،pièce 60

TERRASSE (C) & autres, (2011), L'image de Tlemcen dans les Archives Françaises, catalogue de l'exposition réalisée sous l'égide de l'ambassade de France en Algérie, Tlemcen.